محاضرات في الفلسفة الإسلامية

محاضرة ابن مسكويه وفلسفته

المرحلة الثالثة

قسم العقيدة والدعوة والفكر

التدريسي : أ. د . ابراهيم رجب عبدالله

٥. ابن مسكويه (ت ٤٢١هـ)

١. مكانه :

هو أبو علي بن مسكويه، الطبيب، اللغوي، المؤرخ، كان أثيراً عند السلطان عضد الدولة وصاحب خزائنه، وقد خلّف ابن مسكويه مذهباً فلسفياً في الأخلاق لا يزال له شأن في الشرق الى يومنا هذا؛ وهو مزيج من آراء افلاطون وأرسطو وجالينوس ومن أحكام الشريعة الإسلامية، غير أن نزعة أرسطو غالبة عليه.

٢. وجود الله:

يثبت ابن مسكويه وجود الله من طريق اتفاق الأوائل على ذلك، والى أنه جلي غامض؛ أما إنه جلي فمن قبل أنه الحق، والحق نيّر ؛ وأما أنه غامض فلضعف عقولنا بسبب تكثر الأغشية الهيولانية على جوهرها، لأن الإنسان أخر الموجودات، والتراكيب تناهت إليه. وقد حاول أن يبرهن على أن الصانع واحد، أزلي، ليس مجسماً، وأنه يعرف بالسلب دون الإيجاب. ولما كان لكل شيء حركة تخصه ناشئة عن طبيعته الخاصة صار الاستدلال بالحركة أظهر الأشياء وأولاها بالدلالة على الصانع. والوجود في كل الاشياء بالعرض؛ ولكنه في المبدع الاول بالذات، فهو ازلي واجب. ووجود الأشياء كلها منه، وقد أبدعها من لا شئ؛ اذ لا معنى للإبداع اذا كان عن شئ موجود. وقد بنى مسكويه رأيه في هذا على فكرة أرسطو في التغير بتعاقب الصور. ولو أمسك الله عن العالم فيض الوجود لانعدم في الوقت والحال. والظاهر أن مسكويه يخالف الفارابي وابن سينا في أمر الصدور

ومراتبه؛ فهو يرى أن العقل الفعال هو أول موجود ظهر عن الأول من غير توسط شيء؛ أما النفس فهي توجد بتوسط العقل والفلك يوجد بتوسط النفس.

٣. العالم عن مسكويه:

الموجودات مراتب؛ وهي سلسلة متصلة، تسري الحكمة في جميع أجزائها، وبعضها في أفق بعض، وهي بمثابة سلك واحد ينظم خرزاً كثيراً. وهو يبين أن كل نوع من الموجودات يبدأ بالبساطة، ثم لا يزال يترقى ويتعقد، حتى يقرب من أفق النوع الذي يليه، فالنبات في أفق الجماد؛ ثم يترقى ويزداد تركيباً حتى يبلغ أعلى درجة، فإذا زاد عليها قبل صورة الحيوان. وكذلك الحيوان يبدأ بسيطاً، ثم يترقى حتى يصل الى مرتبة قريبة من الإنسان. ولا يزال الإنسان يرقى ويزداد ذكاء وصحة في الفكر وجودة في الحكم، حتى يبلغ أفق الملائكة ويناسبها ويستمد منها.

وهذا الرأي يهيئ لابن مسكويه أساساً لاثبات النبوة وبيان كيفية الوحي. وهو يقول إن الإنسان يترقى حتى يبلغ الأفق الأعلى الخاص به، وهنا يتعرض لأحد منزلتين: إما أن يديم النظر في الموجودات لينال حقائقها، فيحتد نظره، وتلوح له الأمور الإلهية أوضح من بداءة العقول؛ وإما أن تأتيه تلك الأمور من غير أن يرتقي إليها. وصاحب المنزلة الأولى هو الفيلسوف الذي يرتقي من قوة الحس الى قوة التخيل الى قوة الفكر، ومن هذه الى إدراك حقائق الأمور التي في العقل. وصاحب المنزلة الثانية هو النبي الذي يتلقى فيضاً من أعلى على طريق عكسي، أي بطريق العقل، وهذا يؤثر في القوة الفكرية وتؤثر هذه في المخيلة، وتؤثر المخيلة في الحس، فيرى حقائق الأشياء ومبادئها كأنها خارجة عنه، وكأنما

يراها بنظره ويسمعها بإذنه؛ ولكن لا بد أن تتلبس تلك الحقائق بصورة هيولانية، كما إن الأمور الهيولانية إذا ارتفعت الى العقل سلخ عنها صورتها الهيولانية.

وإذا ارتقى من وصل الى أسفل بالتفلسف ومن تلقى من أعلى بالفيض اتفق رأيهما وصدق أحدهما الآخر بالضرورة، لاتفاقهما في تلك الحقائق.

٤. ماهية النفس

يقول ابن مسكويه: (إن النفس جوهر بسيط غير محسوس بشيء من الحواس)، وهي تدرك وجود ذاتها، وتعلم أنها تعلم، وأنها تعمل. ويستدل ابن مسكويه على أن النفس ليست جسماً بأنها تقبل صور الأشياء المتضادة أشدّ التضاد في وقت معاً، كقبولها معنى الأبيض والأسود مثلا؛ على حين ان الجسم لا يقبل في وقتٍ إلا السواد أو البياض. ثم ان النفس تقبل صور كل من المحسوسات والمعقولات على السوية؛ فصورة الطول لا تحدث طولا في النفس، ويزيد فيها معنى الطول، فلا تصير به اطول.

والنفس عنده جوهر باق لا يقبل الموت. والادراك في الإنسان بنحوين: إدراك بالحواس، وهو يشارك فيه البهائم؛ وإدراك بالعقل، وهو يختص بالإنسان؛ والأول غالب على الثاني، وهو يحول دون كماله. ولكن بالارتياض يقوى إدراك العقل حتى يتجلى لنا أن المحسوس عند العقل بمنزلة الشيء المموه عند الشيء المحقق. وسبيل الإدراك الصحيح هو التدرج بالرياضيات ثم بالمنطق والطبيعيات وهكذا.

ومعارف النفس وقدرتها أوسع مدى من الجسم، بل إن العالم المحسوس كله لا يقنعها. وفوق هذا ففي النفس معرفة عقلية أولية، لا يمكن أن تكون قد أتت لها من طريق الحواس؛

لأن النفس تستطيع بهذه المعرفة أن تميز الصادق من الكاذب فيما تأتي به الحواس، وذلك بمقارنة المدركات الحسية والتمييز بينها؛ فهي بهذا تشرف على عمل الحواس وتصحح خطأها. ثم إن وحدتها العقلية تتجلى أوضح ما تكون في انها تدرك ذاتها وتعلم أنها تعلم، وهي وحدة يكون فيها (العقل والعاقل والمعقول شيئاً واحداً).

وتمتاز نفس الانسان على نفس الحيوان روية عقلية، يصدر عنها الانسان في أفعاله، وهي روية متجهة الى الخير.

٥. أصول الأخلاق:

والخير بالإجمال هو ما به يبلغ الكائن المريد غاية وجوده أو كمال وجوده. ولا بد في الموجود لكي يكون خيراً من توفر استعداد متجه الى غاية. غير أن الناس يختلفون في استعدادهم اختلافاً جوهرياً. ويرى ابن مسكويه أن من الناس فئة أخياراً بالطبع، وهم فئة قليلة، ولا ينتقلون الى الشر بحال، لأن ما هو بالطبع لا يتغير؛ أما الأشرار بالطبع فكثيرون، ولا يصيرون الى الخير البتة. وثم قوم هم بفطرتهم لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء، وينتقلون الى الخير او الى الشر بالتأديب، أو بمصاحبة الأخيار أو أهل الغواية.

والخير إما عام، وإما خاص؛ وهناك خير مطلق، هو عين الموجود الأعظم والعلم الأسمى. والأخيار جميعاً يسعون في الوصول إليه؛ غير أن لكل فرد من الناحية الذاتية

خيراً خاصاً به يتمثل في شعوره بالسعادة أو اللذة. وينحصر هذا الخير الخاص في أن تصدر عن الموجود أفعاله التي تخص صورته تامة كاملة.

وبالجملة فالإنسان يكون خيراً سعيداً إذا صدرت عنه أفعاله الإنسانية، والقضية هي فعل الإنسان بحسب صورته الحقيقة. ولكن لما كانت الإنسانية تبدو بدرجة متفاوتة في مختلف الأفراد، فالسعادة أو الخير ليس واحداً عندهم جميعاً.

ولما كان الفرد، لو اعتمد على نفسه ولم يستنجد بغيره، لا يستطيع تحقيق جميع الخيرات الممكنة، فقد وجب اجتماع أفراد كثيرين وتعاونهم. ويترتب على هذا أن أساس الفضائل وأول الواجبات جميعاً هو محبة الانسان للناس كافة، وبدون هذه المحبة لا تقوم جماعة قط.

فالإنسان لا يبلغ كماله إلا مع أبناء جنسه وبمعونتهم؛ وبذلك يجب أن يكون علم الأخلاق علماً لما يجب أن تكون عليه أخلاق الإنسان في الجماعة. فليست الصداقة امتداداً في حب الإنسان لذاته حتى يشمل غيره، كما قال أرسطو، بل هي تضييق لدائرة حب الذات، أو هي ضرب من محبة الإنسان لجاره؛ وهذه المحبة – مثلها مثل الفضائل بالإجمال– لا تظهر آثارها إلا في جماعة أو مدينة، ولا تظهر آثارها في عزلة الراهب الناسك الذي يفر من الدنيا. والمتوحد الذي يعتزل الناس ويحسب أنه من أهل الخير والاعتدال مخدوع لا يعرف حقيقة أفعاله.

ويذهب ابن مسكويه الى أن أحكام الشريعة لو فهمت على وجهها الصحيح لكانت مذهباً خلقياً أساسه محبة الإنسان للإنسان. والدين رياضة خلقية لنفوس الناس؛ وغاية الشعائر

الدينية، كصلاة الجماعة والحج، هي أن تغرس الفضائل في نفوس الناس؛ فهي تعلمهم محبة الجار في أوسع صورها.